تواصل (المدى) نشر هذا الكتاب الذي يقدم صورة عن ذكريات وانطباعات وآراء بول بريمر حول فترة عمله في العراق وتهدف (المدى) عبر ترجمتها ونشرها الكتاب إلى إتاحة الفرصة لقرائها للاطلاع ، كما تتيح المجال للباحثين والمحللين وسواهم من المعنيين لمراجعة مادة الكتاب فكرياً ونقدياً.. وبهذا تؤكد (المدى) ان جميع الآراء والمعلومات التي يقدمها بريمر هنا هي تعبير عن وجهة نظره الشخصية التي لا تلتقي مع وجهة نظر (المدى) التي واكبت فترة حكم بريمر وما بعدها بالنقد الصريح المعروف عن الجريدة وعن سياستها الواضحة في هذا المجال.

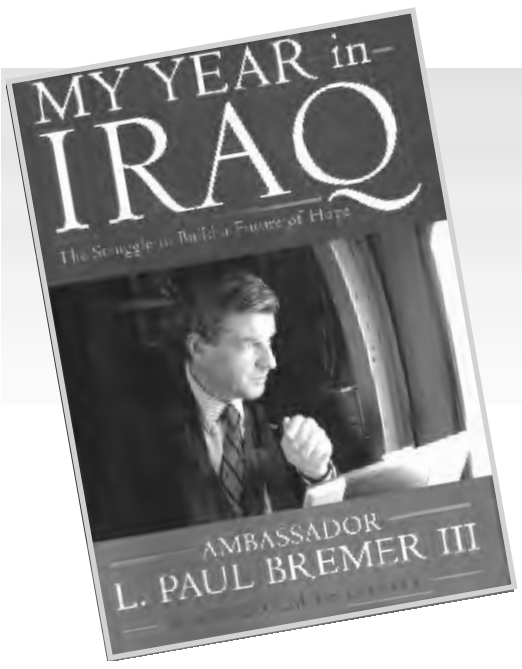

كتاب بول بريمر الصادر حديثاً حول تجربة عمله في العراق

سنتي في العراق

الصراع لبناء مستقبل من أمل

تأليف/ بول بريمر
ترجمة /د. عابد اسماعيل

(الحلقة الخامسة و العشرون)

الفصل الخامس

أمل بعيد بغداد (١٤ تموز، ٢٠٠٣)

ارتجفت صورةُ الجنرال جون أبي زيد على شاشة التلفزيون المسطّحة ، ومن ثمّ اختفت. غير أنّ قناة الصوت لم تنقطع."لا شكّ أنّ المتمرّدين البعثيين يصعّدون مستوى نشاطهم ، سيدي الوزير،" أبرَقَ جون من مقرّ قيادة التحالف ، في تامبا ، إلى دون رامسفيلد في البنتاغون.

كنتُ قد اعتدتُ على هذه التكنولوجيا غير المضمونة للمؤتمرات اللاسلكية، عبر الفيديو، والتي كنا نعقدها في أوقات بعد الظهر. جالساً أمام الشاشة في غرفة ضيّقة، في الطابق الثاني من القصر، كنت أستطيع أن أرى المشارك يتحدّث، في حين كانت النوافذ الإلكترونية تكشف، عند أسفل الصورة، عن الاشخاص المشاركين في الحلقة. حين يعمل النظام، كنا نتخيّل أنفسنا جالسين حول طاولة اجتماع.
ولكن في هذه الظهيرة القائظة من تموز، كان جهاز الاتصالات (VTC)، الذي يصل بغداد بجون أبي زيد في فلوريدا، برامسفيلد في واشنطن، مهزوزاً.
"لقد فقدتُ الفيديو، يا جون،" قلتُ، "هل فقدته أنت أيضاً؟"
"ليس ثانيةً،" غمغم رامسفيلد.
لم يكن وزير الدفاع معروفاً بصبره الطويل. واليوم، فإن صورة مضمونة وواضحة كانت جدّ ضرورية لأن جون أبي زيد كان يستخدم جداول وخرائط.
" ...ونحن نستطيع أن نبرهن بأنّ الجهاديين الأجانب يتدرّبون في سوريا ولبنان،" أضاف أبي زيد، مختتماً تقديمه الافتتاحي.
عادت الصورة، وأظهرت بعضاً من الصور التوضيحية والخرائط التي يستخدمها الجنرال من مقرّات القيادة المركزية. منذ انهيار صدام في نيسان، كانت حدود العراق الطويلة مع سورية تمثل طريق الهروب الرئيسية للبعثيين الفارين، ومنفذ التسلل الرئيسي للمقاتلين الإسلاميين المتطرفين إلى العراق.
تطلق القيادة المركزية على منطقة تمركز الجهاديين الآن "المثلث السنّي"وهو إسفين شاسع من الصحراء، يتقاطع مع وادي نهر الفرات غرب وشمال بغداد. هذا هو الملاذ لعدد غير معروف من البعثيين المتشدّدين، من فرقتين للحرس الجمهوري (واللتين كانتا في الأصل هدفاً لفرقة المشاة الرابعة الأمريكية، التي لم يسمح الأتراك لها بالدخول إلى العراق من الشمال في آذار) كانتا قد فرتا بعد سقوط بغداد.
في مدن مثل الفلوجة والرمادي، وبغداد نفسها، كان التحالف يخسر عدداً متزايداً من الجنود ضحية للسيارات المفخخة، والقنّاصين، وهجمات بقاذفات آر بي جي. كان أكثر من أربعين جندياً ورجل مارينز قد قُتلوا أثناء عمليات حربية، أو نتيجة حوادث في العراق، منذ أن أطاح جنودنا بتمثال صدام، في ساحة الفردوس، في نيسان. كان بعض هؤلاء الشبان والشابات من الجنود من وحدات الاحتياط والحرس الوطني. وقد سرت أخبار موتهم من (هوماتون) في الولايات المتحدة، إلى الكابيتول هيل والبنتاغون.
كانت الولايات المتحدة قد اعتمدت علناً على سورية لقمع هذه النشاطات. لكن سورية، المحكومة بحزب بعثها، بدت عصية على المساومة الديبلوماسية أو الاقتصادية، وكان يمكن أن تلين فقط إثر تدخل عسكري مباشر. لكن الرئيس بشار الأسد، نجل الديكتاتور الراحل حافظ الأسد، كان يعرف أنّ هذا غير وارد لأن القوات الأمريكية منشغلة في كلّ من العراق وأفغانستان.
وفيما كان أبي زيد ورامسفيلد يناقشان الخيارات "للسيطرة على الحدود،" كنتُ أفكّر بالأزمة الأمنية المتصاعدة.
كانت البنتاغون تأمل أن تستبدل التشكيلات المقاتلة الكبيرة التي هزمت جيش صدام بتشكيلات من وحدات أمريكية وأجنبية تابعة "من وحدات التحالف الراغبة". كان من الواجب ان تتولى "فرقة" بقيادة البولنديين، لتتسلم شؤون الأمن في مناطق شيعية تقع بين بغداد والبصرة، من احدى كتائب المارينز الأمريكية، في أيلول. ويصل حجم هذه القوة، المؤلفة من بولنديين وأوكرانيين، ووحدات أصغر من أمريكا اللاتينية، إلى لواء عسكري قوامه ٣٠٠٠ جندي، مسؤول عن منطقة عمليات تشغلها عادةً كتيبة عسكرية. لكنها كانت التشكيل الأكبر حجماً في الجنوب، بعد القوة البريطانية البالغ عددها ١١٠٠٠ جندياً.
لكنّ أبي زيد أوضح أنه حتى وإن كانت قوات التحالف المقترحة، التي يقودها البولنديون، ستأخذ مكان وحدات أمريكية مقاتلة، انتهت فترة خدمتها في العراق، فإنّ ما يبلغ قوامه ٢٣ ألفاً من الجنود غير الأمريكيين في البلاد لن يكون "كافياً".
كنتُ أشارك جون أبي زيد شعوره بالإحباط. كنتُ أشعر بأن البنتاغون لم يكن يدرك الحاجة الملحة للقضاء على التمرّد البعثي الجهادي المتصاعد، ووأده في وقت أبكر. كانت حالة عدم الاكتراث المؤسساتيه وحجمها في البنتاغون جزءاً من المشكلة. في منتصف حزيران، كنت قد شاركتُ من بغداد، في مؤتمر لاسلكي آمن، عبر الفيديو، مع مجلس الأمن القومي، ترأسه الرئيس جورج بوش، وناقشنا خلاله الوضع الأمني في العراق.
"أخشى أننا نقلل من عدد قواتنا هنا قبل الأوان،" قلتُ. "ليس كافياً القول ببساطة بأن الجيش وكتائب المارينز سيتم استبدالها بقوات من بلدان أخرى."
نظرتُ إلى قائمة من وحدات صغيرة، كانت تشكّل نقاط ارتباط مع مقرّات القيادة المركزية في تامبا، ويمكنها أن ترسل قوات إلى العراق. لكن هذه كانت تمثل خليطاً، أو "مجموعات صغيرة، جاءت ومعها قواعد الاشتباك الخاصة بها، وأين وكيف ومتى يمكنها أن تشارك في القتال. على سبيل المثال، يمكن للجنود الليثوانيين أن يساهموا بأربعة أطباء وفصيل عسكري، لكن عددهم الإجمالي لا يتجاوز خمسة وثلاثين فرداً.
"إنّ استقدام قوات أجنبية يجب أن لا يشتّت انتباهنا عن قدراتنا القتالية،" قلتُ مؤكداً. ثمّ نوّهت أن الحرب لم تنته بعد. كما بأننا نغامر بإعطاء العراقيين انطباعاً بأننا لسنا جادّين، وإذا حدث ذلك، فإن الحالة الأمنية يمكن أن تتدهور بسرعة كبيرة.
كنتُ أحاول أن أسمع الرئيس هذا الكلام، لأنه كان لدي انطباع بأن الرجال العسكريين، وربما رامسفيد نفسه، كانوا على عجل لإعادة قواتنا إلى الوطن.
وكما هي العادة مع اجتماعات مجلس الأمن القومي، كان الرئيس بوش يجلس على رأس الطاولة، في قاعة الاجتماعات في البيت الأبيض، بزواياها وأطرها الخشبية.
"أتفق معك، يا جري،" قال. "لكن أعتقد أنك أسأت الفهم. إن القوات الأمريكية التي سيتم سحبها سوف تُستبدَل بوحدات عسكرية أمريكية أخرى."
ومما فهمته من الاستبدال الجاري للقوات، لم تكن هي المسألة، ويمكن أن أكون مخطئاً، ولكن مهما يكن من أمر، فإنه يقع على عاتق القادة العسكريين وضع الأمور في نصابها.
غير أن جنرال البحرية، ونائب رئيس هيئة الأركان العامة، بيتر بيس، زاد الطين بلّة حين قال إنه عندما غيرت كتيبة المشاة الثالثة (التي قادت الهجوم على بغداد) مواقعها في تموز، كان من المفترض أن تُستبدل بكتيبة المشاة الرابعة المجهزة تجهيزاً ثقيلاً. ولكن، بما أن كتيبة المشاة الرابعة كان مقرراً لها أن تدخل العراق، فقد فهمتُ بأنّ قوتنا الهجومية سوف تقلّ بمعدل كتيبة واحدة.
في نهاية الاجتماع، اتصلتُ بالجنرال جون كرادوك، أحد كبار المساعدين العسكريين لرامسفيلد، لكي أتأكد أنّ وزير الدفاع فهم مخاوفي حيال سحب القوات.
ومن ثم اتصلتُ بالدكتورة رايس.
"حسب رأيي،" قلتُ لها، "إن التحالف يملك فقط نصف عدد الجنود الذين نحتاج إليهم هنا، وأخشى أن نُجبر على إرسال المزيد من الجنود جنوباً." كنتُ أفكّر بدراسة معهد (راند)، التي كنت قد اطلعت عليها قبل ذهابي إلى العراق.
"أنا قلقة، أيضاً،" قالت. "طلبتُ من المعنيين إعطائي تقريراً تفصيلياً لقوة جيشنا لكي أجعل الرئيس يطّلع عليه."
بعد ذلك الاتصال مباشرة، سألت كلاي ماك منواي أن يجتمع بجون أبي زيد، لدى عودته إلى قطر، لكي يدرس بدقة التفاصيل المتعلقة بعدد القوات الحقيقي. لم نكن بالتأكيد نريد أن نتقاطع مع الجيش. ولكنني كنتُ مقتنعاً بأننا إذا لم نحتفظ بقوة عسكرية أمريكية، كافية، وقوة تحالف كافية أيضاً- في العراق، فسوف تواجهنا مشاكل حقيقية بخصوص إعادة بناء البلاد.
وكان ثمة مصدر آخر للقلق، هو الافتقار إلى استخبارات دقيقة عن طبيعة العدو. في أوائل تموز، استُدعي رئيس فرع الاستخبارات المركزية (CIA)لدى سلطة التحالف المؤقتة، للقيام بواجبه. كان "بيل" شخصاً نحيلاً، رشيق الحركة، و هو رجل محترف خدم لسنوات طويلة في المنطقة، ويتحدث العربية. وكانت محطة بغداد هي الأضخم في العالم، وبالتالي كان ينتظره عمل كبير. وكما كنتُ أرى الأمر، كان جزء من المشكلة يكمن في أنّ واشنطن كانت مهتمة أكثر بالبحث عن أسلحة الدمار الشامل أو القبض على كبار البعثيين الهاربين، والذين وزعت أسماءهم القيادة المركزية في شكل أوراق اللعب الشهيرة، بصفتهم أشهر المطلوبين.
كانت قوات التحالف تبحث عن مخازن الأسلحة العراقية، منذ أواخر آذار، لكنها حتى تلك اللحظة، لم تكن قد عثرت على أسلحة دمار شامل. كنتُ أعرف أنّ قيادة المخابرات المركزية في لانغلي، ولاية فيرجينيا، تضغطُ كثيراً على بيل. كان يشرف على مجموعة التفتيش العراقية، وهي منظمة استخباراتية برئاسة مسؤول المخابرات المركزية الأمريكية ديفيد كي، والجنرال في الجيش الأمريكي كيث ديتون، والتي ضمت نحو ١,٤٠٠ موظف مدني وعسكري من التحالف، ممن كانوا يفتشون عن أسلحة الدمار الشامل. وكان هذا الجهد يتطلب عملاً إدارياً مرهقاً من محطة بغداد.
"حسنٌ، يا بيل،" قلتُ، ثم بكل صراحة أضفت، "إن البحث عن أسلحة الدمار الشامل مسألة هامّة. ولا شكّ أننا نتشوّق للقبض على صدام حسين وجماعته. لكننا نحتاج أيضاً أن نأخذ المبادرة في التصدي لأولئك الذين ينسفون سيارات "الهامفي" ويقتلون جنودنا- وأولئك الذين يخربون خطوط الطاقة الكهربائية، وأنابيب النفط."
"أنا أحاول فقط توزيع الاعباء وفق الاولويات".
"انظر" قلتُ. "لا أعتقد أن قواتنا سينالها، على الأرجح، أذى من أسلحة الدمار الشامل. لكنهم يتعرضون للتفجير كل يوم على أيدي متمردين بعثيين أو إرهابيين. يجب أن يكون العثور والقضاء على هؤلاء الناس أولويتنا رقم واحد."
لم تبد عليه ملامح الاقتناع. ذكّرتُ بيل بأنه بوصفه الممثل لمدير المخابرات المركزية، فإن مسؤولياته الاستخباراتيه في العراق تتجاوز وكالة الاستخبارات (CIA)ذاتها، وسعيها للعثور على أسلحة دمار شامل.
"أريدكَ أن تستجمع كل الإمكانيات الاستخباراتية هنا، وخلال أربع وعشرين ساعة، وتأتيني بخطة جديدة للقبض على هؤلاء الأشرار."
وفي الوقت الذي استنفر فيه بيل فريق عمله، أعلنتُ، في اليوم التالي، عن جائزة مالية نقدية للقبض على صدام وابنيه، والتي كانت واشنطن قد وافقت عليها. كانت الجائزة على رأس صدام تبلغ ٢٥ مليون دولار، مع تسفير للمخبر وعائلته من العراق، و١٥ مليون دولار على كل من ابنيه، عدي وقصي. بدأ يوم الخميس، ١٧ تموز، وهذا هو منتصف الصيف، بصباح بغدادي، خال من الهواء، وكان شروق الشمس يهدد بتحويل المدينة إلى فرن ملتهب. كنا، أنا وكلاي، نتشارك في بيت متنقل، مكيف، وبالتالي- حين تكون الكهرباء متوفرة- كنا نقضي ليالي ليست سيئة جداً. ولكن أنا متعب، اليوم. وكذلك الجميع.
وإذا أخذنا بعين الاعتبار فارق التوقيت بين واشنطن وبغداد، والذي يصل إلى ثماني ساعات، كنتُ غالباً أصعد إلى غرفة الاتصالات في الطابق الثاني، بعد منتصف الليل. كنتُ أمرّ بمكاتب مملوءة بالناس الذين لم يغادروا طاولاتهم منذ الفجر.
وبالرغم من أن حجم سلطة التحالف المؤقتة قد وصل تقريباً إلى ثلاثة آلاف موظف، من خمسة وعشرين دولة، الا اننا كنا نشعر بالنقص. على مدى أسابيع، كنا نفتقر للهواتف. وغرف القصر المنمّقة لا حصر لها. وبالتالي، فإنّ الدعوة إلى اجتماع كانت تتطلب إرسال مبعوث لتنبيه الناس وإعلامهم، على أمل أن يجدهم في الموعد المناسب.
قلتُ لزوجتي فرانسي إن هذا ذكّرني بالطريقة التي كان زعماء القبائل الإفريقية يستدعون فيها محاوريهم بإرسال عدّائين يحملون عصياً مشطورة.
كان معظمنا في القصر يعمل لساعات طويلة منهكة، وعلى مدى سبعة أيام في الأسبوع. كانت حالة الطوارئ دائماً حاضرة، يزيد في سوئها الحرارة الشديدة، والانقطاع المتكرر للكهرباء والماء، ناهيك عن جلبة رجال الإطفاء، وأصوات الانفجارات.
كان حجم الضغط كبيراً لدرجة أن العديد أصيبوا بنوع من زوغان الوقت. كنت دائماً أتفاجأ بأن اجتماعاً كنتُ أظنّه قد عُقد قبل عدة أسابيع، جرى قبل ثلاثة أيام فقط. لكننا كنا دائماً نغفر لأنفسنا هذه الهفوات، مازحين بالقول، إن هذا هو "توقيت بغداد." واتفقنا أخيراً على أن يكون هناك ثلاثة أيام فقط في الأسبوع لدى سلطة التحالف المؤقتة هي البارحة واليوم وغداً.
في أغلب الأحيان، كنا نشتاق إلى أنواع بسيطة من الراحة، مثل كأس مملوءة بمكعبات الثلج، وحمّام صالح ... سطوح خالية من الغبار، هذا الغبار الأكثر هيمنةً في بغداد. كان الغبار في كلّ مكان، وعلى كلّ شيء؛ وكلّ الأشياء كانت تُخفي اتساخاً ما. حتى سعف النخل وأوراق الصبار كانت مثقلة بالغبار. ولكن، حين كنا نرى قواتنا، في أي يوم من أيام بغداد الخانقة، مسمرة في جاهزية قتالية عالية، كانت تختفي كل شكوى لدينا. أما كيف كان هؤلاء الشبان والشابات بالزي العسكري يتحملون الحرارة، فكان ذلك أعجوبة بالنسبة لنا. كانت راحتهم تقتصر على دقائق قليلة من الفيء، وجرعة من الماء الفاتر، على مدى ساعات طويلة.
كانت قهوة "اسبريسو" الثقيلة تقوّم مزاجي. وبعد وجودي في الوظيفة لسنوات، صرت معتاداً على شرب ما كنتُ أسميه "قهوة حقيقية"- قهوة اسبريسو إيطالية جيدة. كنت احتفظ بآلة قهوة اسبريسو في واشنطن، وحالما وصلت إلى بغداد، أرسلتُ في طلب جهازين، عبر نظام البريد العسكري. كان ابني وابنتي حريصين على إرسال رزم منتظمة من القهوة، عن طريق خط البريد العسكري، ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار تقلّبات هذا النظام، لم أكن أعلم متى تصل إلي. وكنا، إذا نفذت منا، يساورنا نوع من القلق. لكنها كانت تساعدنا على الاستمرار لمدة ثماني عشرة إلى عشرين ساعة في اليوم، وتعطي سبباً قوياً لموظفي سلطة التحالف المؤقتة للقيام "بزيارات عابرة" إلى مكتبي.
في صباح هذا اليوم، الخميس، في الساعة السابعة والنصف، حيث درجة الحرارة في مكتبي كانت قد بلغت المئة فهرنهايت، قابلتُ ديف أوليفر، كبير مستشارينا الماليين. كان الموضوع مزعجاً كالحرارة ذاتها.
ومثل جميع أعضاء فريق سلطة التحالف المؤقتة، كان ديف أوليفر يعمل بلا توقف تقريباً لأنه كان يفهم أكثر من الجميع المشاكل المالية الخطيرة التي نواجهها. كان ممتناً لقهوة اسبريسو الصباحية.
"إننا في طريقنا إلى الإفلاس، يا معلم،" أخبرني بعد أن أطلعني على أوراق مطبوعة وجداول أحضرها معه.
ديف ضابط بحرية و أدميرال متقاعد، داكن الشعر، في أواخر الخمسينيات من عمره، بوجه بحّار ملفوح بالطقس. كان قد أشرف على قيادة غواصات نووية، وعمل كأحد كبار موظفي البنتاغون في قضايا التكنولوجيا والمكاسب في عهد إدارتي الرئيسين جورج بوش وبيل كلينتون. وقد نجح نجاحاً باهراً في "عصر" وتوظيف كلّ دينار وفلس، من تمويلنا المحدود. إذا قال إننا نعاني من ضائقة مالية، فهذا يعني أنه يمكن المراهنة على ذلك.
"متى؟"

يتبع